تصـــدير الكتاب

بقلم المؤرخ الجليل الدكتور حسن إبراهيم حسن

أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب بالجامعة المصرية

يسرنى أن أقدم إلى قرّاء العربية رسالة ممتعة ممتازة عن "الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره"، كشفت عن كثير من نواحى التاريخ الاسلامى بوجه عام وعن تاريخ مصر فى عصر المماليك بوجه خاص، وحققت رغبة كانت تتوق اليها نفوس الكثيرين من رجال العلم والأدب فى مصر. قد كان من المؤلم أن تظل نواح كثيرة من تاريخنا المصرى الحافل بأسباب العظمة والمجد مجهولة لكثير من المصريين والشرقيين، مع أن فى كشفها كشفا عن صحيفة مشرفة لمصر والشرق الاسلامى كله. ولا ريب أن المؤرخين اذا حذوا حذو الأستاذ محمد جمال الدين سرور ونقبوا عن هذه الكنوز المدفونة فى بطون الكتب القديمة، فقد أسدوا الى أمتهم و بلادهم أجل الخدمات وأسماها.

ولقد عنى المؤلف فى هذه الرسالة ببحث مسائل لم يسبقه إليها أحد من المؤرخين، من حيث استقصاء المعلومات التاريخية وتنظيمها بأسلوب جذاب وعبارة طلية وطريقة تحليلية دقيقة. والمطلع عليها يرى أنه قد عالج فيها نواحى جديرة حقا بالبحث لاتصالها بتاريخنا القومى وحضارتنا فى عصر من أزهى العصور فى التاريخ المصرى الاسلامى، كظهور المماليك فى مصر، والعوامل التى أدّت الى انتقال الحكم من أيدى الأيوبيين الى المماليك، وكيف ظهر بيبرس على مسرح السياسة المصرية بقوة دهائه وحسن سياسته وبعد نظره وثاقب فكره، وكيف أحيى الخلافة الاسلامية فى مصر بعد أن قضى عليها التتار فى بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨م)، فأصبحت مصر بفضله مقرّ الخليفة العباسى وقلب الاسلام النابض، وعاد إليها

مجدها الدارس وعزها التالد منذ أيام الفاطميين الذين اتخـذوا القاهرة حاضرة لخلافتهم ، والذين امتد سلطانهم على البلاد الاسـلامية التى بين المحيط الأطلسى غربا و بلاد العراق شرقا وبين آسيا الصغرى شمـالا و بلاد النوبة جنوبا ؛ كما أبان أيضا كيف وقفت مصر فى وجه الحملات الصليبية موقف البطولة والهمة حتى دقت معاقل الصليبيين فى بلاد الشام معقلا تلو معقل رغم ما كان يتتابع عليهم من نجدات أوربا المسيحية ، وكيف استطاع بيبرس أن يستولى على إمارة أنطاكية و مهد بذلك السبيل للقضاء على بقاياهم فى عهد الأشرف خليل بن قلاوون سنة ١٢٩٢ م .

وقد حلل الأستاذ جمـال الأسباب التى أدت الى فشل هؤلاء الصليبيين فى غزواتهم ، كما بين لنـا كيف وقف بيبرس فى وجه المغول الطامعين فى مصر ، وكيف قضى على قوتهم فى الشام وحال بينهم و بين ما يشتهون ، بعـد أن اجتاحوا الخلافة من بغداد وثلوا عروش الممالك التى نازلوها فى الشرق والغرب حتى أصبحت أثرا بعد عين .

ولم يكتف المؤلف بسرد هذه الحوادث وتحليلها ، بل أبان لنا بجلاء ووضوح كيف كانت مصر فى علاقتها بالتتار يتنازعها عاملان عظيمان : العامل الأول عامل دينى نشأ عن اعتناق بركة خان وكثير من أتباعه ببـلاد القفجاق الدين الاسـلامى وأيدته المصاهرة التى تمت بزواج ابنة هذا السلطان من الظاهر بيبرس ، والعامل الثانى عامل عدائى يرجع الى المحالفـة التى عقدت بين هولاكو سلطان المغول فى فارس وجماعة الصليبيين الذين كانوا يناصبون مصر العداء .

وقد ألم الأسـتاذ جمال إلمـامة عامة بعلاقات مصر الخارجية فى عصر الظاهر بيـبرس مع أمم الغرب وبخاصة مع أمبراطور الدولة البيزنطية ، وكيف استحكمت عرى المودة بين الامبراطوريتين المصرية والبيزنطية ، وكيف تبادلتا الرسل والهدايا ، وكيف توثقت العرى بين مصر وملكى صقلية وأرجونة (Aragon) وأمير إشبيلية ، وكيف أفادت مصر سياسيا وتجاريا من وراء هذه المحالفات . كما لم يفت المؤلف أن

يبين لنا كيف اتسع نفوذ مصر بين الأمم المجاورة لها والتى تربطها بها بأواصر قوية من الدين واللغة والتقاليد كبلاد النوبة والحجاز .

وإنى لأنوه هنا بمزيد الغبطة والاعجاب بما كتبه المؤلف عن الحضارة المصرية فى عصر الظاهر بيبرس . فقد أعطى لنا صورة واضحة جلية لا تدع مجالا للشك فى أن هـذا العصر كان من أزهى العصور الاسلامية قاطبـة ، فأعاد الى الأذهان عصر الرشيد والمأمون وعصر المعز لدين الله الفاطمى وابنه العزيز فى النظام السياسى والادارى والقضائى والحربى ، وفى العناية بالزراعة والصناعة والتجارة ، وفى ازدهار رياض العلم والأدب ، والرقى الاجتماعى .

ولا غرو فقد بحث المؤلف نظام الحكم فى ذلك العصر ، وكيف عمل بيبرس على حصر وراثة العرش فى أسرته بعـد أن كان غنيمة لكل قوى يستطيع التغلب عليه ، مما كان يدعو الى التطاحن والتنافس بين الأمراء . وقد كان من الطريف الممتع ما كتبه المؤلف عن نظـام البلاط ممـا هو قريب الشبه بنظام البلاط الملكى فى عصرنا هـذا ، كما بين أن السلطان كان يستعين فى ادارة شـئون الدولة بولاة الأقاليم الذين كانوا يقومون بجمـع الخراج والرسوم الجمركية والاشراف على شـئون البـلاد .

كذلك بحث الأسـتاذ محمد جمال الدين سرور نظام البريد فى عصر بيبرس ، وكيف كانت تتبادل الرسائل داخل البلاد المصرية وخارجها بطريق البر والجو ، وأبان حالة الجيش فى ذلك العهد ، فوضح لنـا كيف أعطى بيبرس لجيشه جزءا كبيرا من عنايته لأنه القوة التى يعتمد عليهـا ويوطد بهـا عرشه ، فزاد فى عدده وعدده ، وبنى لمصر أسطولا كان نواة لأسطول قوى فى عهـد دولة المماليك بمصر ، كما نوه بما كان لبيبرس من جهود موفقة فى سبيل تنمية الثروة المصرية عن طريق الزراعة والصناعة والتجارة ليستعين بذلك على تعبئة الجيوش لصد الأعداء فى داخل البلاد وخارجها .

ومما يذكر للمؤلف بمزيد التقدير والاعجاب ذلك الفصل الممتع الذى كتبه عن الحياة العلمية والأدبية فى ذلك العصر الذى طالما ظن كثير من الناس أنه عصر حروب وتطاحن ، ليس للعلم ولا للأدب فيه حظ . فقد أظهر لنا شخصيات فذة بارزة فى نواحى العلم والأدب والشعر والثقافة العامة ، من أمثال : محيي الدين بن عبد الظاهر مؤلف كتاب " السيرة الظاهرية " ، والقاضى المؤرخ شمس الدين بن خلكان صاحب كتاب " وفيات الأعيان " ، وجمال الدين بن واصل الذى خلف لنا كتابه " مفرّج الكروب فى أخبار بنى أيوب " ، والشاعر المبدع شرف الدين البوصيرى صاحب الهمزية والبردة . كذلك تكلم الأستاذ جمال عما خلفه الظاهر بيبرس من آثار عظيمة رغم انشغاله بالحروب والمعارك طيلة أيامه ، كالمدرسة الظاهرية ، والجامع الظاهرى ، وما أدخله من الاصلاحات على الجامع الأزهر .

ولا شك أن المطالع على هذا الكتاب يقف على ما بذله المؤلف من جهد متواصل وبحث عميق وتحليل دقيق واستقصاء للحقائق التاريخية من مصادرها مخطوطة كانت أو مطبوعة ؛ وهو فى نظرنا جدير كل الجدارة بأن ينال حظه من العناية والتقدير لدى جمهور المؤرخين والمثقفين فى مصر وغيرها من البلاد العربية ، إذ أنه يتناول بحث عصر يعتبر بحق من مفاخر التاريخ الاسلامى .

وإنا لنأمل فى الأستاذ جمال أن لا يقف جهوده عند هذا الحدّ ، وأن يجعل عمله هذا بداية لبحوث أخرى يواصلها فى بحث ما غمض من بقية تاريخ المماليك فى مصر . والله تعالى يوفقه ويسدّد خطاه ،

الجيزة ، ٢٠ مايو سنة ١٩٣٨

حسن ابراهيم حسن

مُقَدِّمَةُ الكِتَابِ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين !

و بعد، فهذا بحث قدّمته إلى كلية الآداب، ونلت به و بغيره من الامتحانات درجة الماجستير فى الآداب . وإنى الآن أقدّمه بين يدى القرّاء كمجهود ضئيل ساهمت به فى كشف بعض النواحى فى تاريخ مصر فى عصر المماليك .

وقد حملنى على الكتابة فيه شغفى بدراسة تاريخ مصر الاسلامية، ورفع الستار عن الحقائق التاريخية التى لم تتناولها أيدى الكتّاب بالبحث والتحليل . وقد أمعنت النظر طويلا فى الموضوع الذى أكتب فيه رسالتى، فشرح الله صدرى لبحث عصر الظاهر بيبرس، لأنه العصر الذى تتجلى فيه عظمة مصر بأجلى مظاهرها . ففيه وقف بيبرس فى وجه الصليبيين وصدّ غاراتهم، كما ناهض التتار عن مصر حتى ردّهم على أعقابهم فانقلبوا خاسرين، فحفظ وطننا المحبوب من غارات أعدائه ؛ ولأنه العصر الذى ظهرت فيه الحضارة المصرية بمظهر يعتبر نواة لنهضة دولة المماليك التى قامت عليها نهضتنا الحديثة من قريب أو من بعيد .

وإن أنس لا أنس فضل أستاذى المؤرّخ الجليل الأستاذ الدكتور حسن إبراهيم حسن أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب، الذى غمرنى بفضله وأظلنى برعايته وأمدّنى بإرشاداته، حتى قمت بتأليف هذه الرسالة على الشكل الذى يراها القرّاء عليه . فقد ساعدنى مساعدة قيمة فى تبويب الكتاب وتنسيقه، وأمدّنى

بكثير من المعلومات فى بحثى هذا، وقد كان من العسير علىّ أن أصل إليها، إذ استقاها لى من مراجع مخطوطة بمكاتب أوربا، كما أرشدنى إلى كثير من المراجع المخطوطة والمطبوعة مما له علاقة بهذا الموضوع، وبذل لى كثيرا من ضروب التشجيع خلال قيامى بإعداد تلك الرسالة؛ ولا سيما فى الوقت الذى كنت ألاقى فيه المتاعب فى جمع المعلومات المنثورة فى بطون الكتب المختلفة .

ولا أنكر أنه لولا ماناله من عنايته وتشجيعه لما قمت باتمام هذا المؤلف ، كما لا أشك فى أننى بفضل ما نلته من هذه الثمرة تجددت عندى عزيمة القيام ببحوث أخرى أتمم بها تاريخ دولة المماليك فى مصر .

وإنى لأسدى خالص شكرى وعاطر ثنائى لحضرات المؤرخين الأجلاء : الأستاذ محمد شفيق غربال وكيل كلية الآداب ، والأستاذ عبد الحميد العبادى ، والدكتور محمد مصطفى زيادة على ما أولونى من تشجيع ورعاية وعلى ماقدموه لى من ارشادات قيمة كان لها أثر كبير فى توجيه رسالتى وجهة سديدة .

كذلك أقدم أجزل الشكر لحضرة الأستاذ الشيخ محمد سليمان بدير خريج قسم التخصص بالأزهر الشريف والمدرس بكلية أصول الدين لتفضله بقراءة الكتاب، كما لا يفوتنى أن أنوه شاكرا بهذه العناية التى بذلها حضرة محمد نديم أفندى ملاحظ مطبعة دار الكتب المصرية فى طبع هذا الكتاب وتنسيقه .

والله أسأل أن يوفقنا جميعا إلى ما فيه خير بلادنا ونفع أمتنا ،

القاهرة فى { ١٢ ربيع الأول سنة ١٣٥٧ / ١٢ مايو سنة ١٩٣٨ }

محمد جمال الدين سرور

محتويات الكتاب

صفحة

تصدير الكتاب ٣

مقدمة الكتاب ٧

بحث فى مصادر الكتاب ١٥

الباب الأوّل — نشأة بيبرس

(١) ظهور المماليك فى مصر : ٢٥

العناصر الأجنبية فى الدولة العباسية — المماليك فى عهد الدولتين الطولونية والأخشيدية — الدولة الفاطمية تستخدم الأتراك فى جيشها — اعتماد الدولة الأيوبية على الأتراك — استكثار الملك الصالح أيوب من شراء المماليك .

(٢) بيبرس قبل اتصاله بالملك الصالح أيوب : ٢٨

أصل بيبرس — تضارب روايات المؤرّخين فى تاريخ ولادته والجهة التى بيع فيها دخوله فى حوزة الملك الصالح أيوب .

(٣) بيبرس منذ اتصاله بالملك الصالح أيوب الى أن انتصر على الصليبيين بمصر . ٣٠

تدرج بيبرس فى مناصب الدولة — حملة لويس التاسع على مصر — الدور الذى قام به بيبرس فى صدّ هذه الحملة — وفاة الملك الصالح — حالة مصر منذ وفاته الى قدوم تورانشاه إليها — موقعة المنصورة — قدوم تورانشاه إلى مصر — موقعة فارسكور — أسر لويس التاسع والافراج عنه — ازدياد نفوذ المماليك — إحلال تورانشاه مماليكه محل مماليك أبيه فى المناصب — إضمار المماليك البحرية السوء لتورانشاه — قتل تورانشاه .

الباب الثانى — حالة مصر قبيل تولية بيبرس سلطنتها

(١) انتقال السلطة إلى المماليك : ٣٩

تولية شجرة الدرّ سلطنة مصر — خروج أهل سورية عن طاعتها — اعترافها الحكم — تولية المعز أيبك أتابك العسكر سلطنة مصر — تنصيب أحد أمراء البيت الأيوبى —

رغبة الملك الناصر صاحب دمشق فى الاستيلاء على مصر — قدومه إليها وانهزامه — فضل المماليك فى صدّ جيوش الناصر عن مصر — ازدياد نفوذهم — إخماد ثورة العرب — المعز أيبك يتخلص من منافسه أقطاى — هروب بيبرس وزعماء المماليك إلى البلاد الشامية — إغراؤهم الملك الناصر بمحاربة مصر — عقد الصلح بين المعز والناصر — اغتيال المعز أيبك — تولية ابنه على — المماليك البحرية يحسنون للغيث الاستيلاء على مصر — قدومهم الى مصر وهزيمتهم عند الصالحية — انتصار قطز على المغيث — رحيل المماليك البحرية الى الطور — مغادرتهم الطور ولجاؤهم الى الملك المغيث بالكرك — قدوم بيبرس الى الملك الناصر — تولية قطز سلطنة مصر .

(٣) ظهور بيبرس على مسرح السياسة المصرية : ٤٧

مسير بيبرس الى غزة — مراسلته الملك المظفر قطز بمصر — قدومه الى مصر — اقطاعه ولاية قليوب — تهديد هولاكو لمصر — استعداد قطز لصدّ غارات التتار — ذهابه الى بلاد الشام — فضل بيبرس فى هزيمة التتار عند عين جالوت — طمع بيبرس فى ولاية حلب — حقد بيبرس على قطز — مقتل قطز .

الباب الثالث — سلطنة الظاهر بيبرس

(١) اعتلاء بيبرس سلطنة مصر وتوطيد سلطته بها : ٥٥

تولية بيبرس سلطنة مصر — تلقيبه بالملك الظاهر — استمالته وعى الرعية .

(٢) الثورات الداخلية : ٥٧

سنجر الحلبى ينادى بنفسه سلطانا على دمشق — خروج شمس الدين البرلى عن طاعة بيبرس — تحريضه أمراء الشام على الانضمام اليه — هجومه على حلب — استيلاء جيوش بيبرس على حلب — هرب البرلى — اعلانه الولاء للملك الظاهر — اتفاق الملك المغيث مع التتار على الاستيلاء على مصر — اعتقال الملك المغيث .

(ب) إحياء الخلافة العباسية : ٦٣

رغبة بيبرس فى إحياء الخلافة بمصر — دعوته للامام أحمد للقدوم الى مصر — مبايعته الامام أحمد العباسى بالخلافة — تفويض السلطنة — تجهيز الخليفة الى بغداد — انهزامه عند هيت ورجوعه — مبايعة بيبرس للامام أبى العباس أحمد بالخلافة — إضعافه نفوذ الخليفة الحاكم بأمر الله .

صفحة

(٢) سياسة بيبرس الخارجية :

(ا) موقف بيبرس إزاء الصليبيين : ٧٤

رغبة بيبرس فى إحياء الامبراطورية الاسلامية — مناوأته للامارات اللاتينية — محالفته الدول المحيطة به — نقض الصليبيين للعهود — قيسارية — أرسوف — صفد — محاولة بيبرس الهجوم على عكاء — مهادنة بيبرس لأميرة بيروت والاستيلاء بحصن الأكراد — هجومه على يافا — استيلاؤه على الشقيف أرنون — فتح أنطاكية — رغبة إمارة طرابلس وعكاء فى موادعة بيبرس — استيلاء بيبرس على حصن الأكراد — استيلاؤه على حصن عكاء — شروع بيبرس فى مهاجمة طرابلس — عقده الصلح مع طرابلس — مهاجمة بيبرس لحصن القرين — تلبيته طلبات الصلح مع عكاء وصور — أسباب هزيمة الصليبيين .

(ب) غزو جزيرة قبرس : ٩٦

أسباب غزو بيبرس لقبرس — مسير أسطول بيبرس لمحاربتها — تحطيم الأسطول — انقضاض أهل قبرس على المسلمين .

(ج) قضاء بيبرس على نفوذ طائفة الاسماعيلية ببلاد الشام : ٩٨

انحياز الاسماعيلية الى الصليبيين — قدوم رسل الاسماعيلية الى السلطان — دخول نجم الدين الشعرانى فى طاعة بيبرس — استيلاء بيبرس على حصون الاسماعيلية .

(د) علاقة بيبرس بالمغول : ١٠٠

(١) مغول فارس :

تحالف التتار مع الصليبيين — إغارة التتار على البيرة — وفاة هولاكو وتولية ابنه أباقا — اتفاق التتار مع الصليبيين على الاغارة على بلاد الشام — إغارة التتار على عين تاب — معاودة التتار الهجوم على البيرة — مسير بيبرس الى الفرات — انتصاره على التتار — اتفاق البرواناه مع الملك الظاهر بيبرس على القدوم الى بلاد السلاجقة الروم — شروع بيبرس فى الاستيلاء على بلاد السلاجقة الروم — هزيمة التتار والروم — جلوس بيبرس على عرش سلاطين قيسارية — مقتل البرواناة — أسباب تقاعد بيبرس عن محاربة التتار .

صفحة

(٢) مغـــول القفـــجاق : ١٠٩

محالفة بيبرس لبركه خان — قدوم بعض التتـار إلى مصر واعتناقهم الدين الاســلامى — تبادل الرســل بين بركة و بيبرس — وفاة بركة — اعتلاء منكوتمر عرش مغول القفجاق — اتفاقه مع بيبرس على مناوأة بيت هولاكو .

(هـ) علاقة بيـــبرس بأرمينية : ١١٤

قدوم هيتوم إلى عين تاب — مسير جيش بيبرس إلى سيس — أسر ليفون — هيتوم يطلب الصلح — اطلاق سراح سنقر الأشــقر — عودة ليفون الى والده — بيبرس يعاود محاربة الأرمن لنقضهم العهود .

(و) علاقة بيبرس بملوك أوربا : ١١٧

تحالف بيبرس مع امبراطور القسطنطينية — تبادل الرسل والهدايا مع منفرد ملك صقلية وتسكانيا — توثيــق عرى الصــداقة بينه و بين شارل صاحب أنجو — تبادل الهدايا بين بيبرس وأمير أشبيلية .

(ز) اتساع نفوذ بيبرس فى بلاد النوبة : ١١٩

امتناع بلاد النوبة عن دفع الجزية لبيبرس — مساعدة بيــبرس لشكنده على استرداد ملكه من ابن أخيه داود — هزيمة داود — تعهدات شكنده لبيبرس .

(ح) ازدياد سلطة بيبرس فى الأماكن المقدّسة بالحجاز . ١٢٢

(ط) تبادل المراسلات بين نجاشى الحبشة و بيبرس . ١٢٣

الباب الرابع — حضارة مصر فى عصر الظاهر بيبرس

(١) النظام السياسى والادارى : ١٢٧

اهتمام بيبرس بشئون مصر الداخلية — نظام الحكم فى عصر بيبرس — حصر وراثة العرش فى أسرته — تولية الملك السعيد عهد السلطنة — كراهية المماليك لنظام وراثة العرش — أثر ذلك فى نزول الملك الســعيد عن العرش — انتقال السلطة من بيت بيبرس الى بيت قلاوون — استعانة بيبرس بالأمراء المقربين له فى إدارة شئون الدولة — نائب السلطان — الوزير — ناظر الدولة — ناظر الخاصة — الحاجب — الاســتادار — الدوادار — الأمير جاندار — ولاة الأقاليم — صاحب العسس — ديوان الانشاء — البريد .

صفحة

(٢) القضـــاء : ١٣٧
دار العدل — تفويض قضاء مصر لتاج الدين بن بنت الأعز — تعيين بيبرس أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة .

(٣) الجيش والبحـــرية : ١٤٠
الجيش فى عهـد الملك الصالح — جزيرة الروضة واهتمام بيبرس بعمارتها — استكثار بيبرس من شراء المماليك — عنايته بتربيتهم تربية دينية عسكرية — طبقات الجند — أزياؤهم — مرتباتهم — اهتمام بيبرس بانشاء دور صـناعة السفن — تقدم مصر فى ميدان الصناعة الحربية والبحرية .

(٤) الحضارة المـادية : ١٤٥
عناية بيبرس بالزراعة — حفر الترع وتطهير الخلجان — ازدياد محصولات مصر — عناية بيبرس بغرس البساتين — ترقيـة مراكز الصناعة — الآلات الحربيـة — المنسوجات الصوفية — صناعة الفرش والبسط — صناعة السكر — مهـارة الصناع المصريين — تقدم التجارة فى عصر بيبرس — عقد المعاهدات التجارية — ازدياد تجارة مصر الخارجية — التجارة الداخلية — أسواق القاهرة — موارد الدولة المـالية .

(٥) منشئات بيـــبرس : ١٥٤
المدرسـة الظاهرية — الجامع الظاهرى — إصـلاح الجامع الأزهر — قناطر السباع — إصلاح منارتى الاسكندرية ورشيد — قرية الظاهرية — إصلاح الحرم النبوى — فن العمارة فى عصر بيبرس .

(٦) الحيـاة العلميـة والأدبيـة : ١٥٨
عناية بيبرس بنشر العلوم الاسلامية — العلماء والأدباء فى عصر بيبرس . (محيى الدين ابن عبـد الظاهر — ابن خلكان — ابن واصل) — النثر الفنى — النظم — الشعراء فى عصر بيبرس .

(٧) الحـالة الاجتماعيـة : ١٦٤
عناصر السكان بمصر — موقف المماليك إزاء المصريين — جاليـة التتار بمصر — الفرنجة — حرص بيبرس على نشر الفضيلة .

خاتمـة القـول فى بيـبرس ١٧١
نجاح بيـبرس فى إعلاء شأن مصر — اكتسابه محبـة الأهلين — شجاعتـه — عدله — تخفيفه أعباء الحياة عن شعبه — ما يأخذه المؤرخون على بيبرس — وفاته .

مصـادر الكتاب ١٧٧

obeikandl.com

بحث فى مصادر الكتاب

تمتاز المراجع المخطوطة التى اعتمدت عليها فى كتابى هذا بأن مؤلفيها عاشوا فى عصر المماليك وأدرك بعضهم عهد بيبرس نفسه كما أن بعضهم تولى بعض الأعمال الإدارية فى مصر فى عهده وفى عهد من خلفه من سلاطين المماليك ولذلك فانها تعد من هذه الناحية ذات أهمية تاريخية فى دراسة عصر الظاهر بيبرس .

ومن المؤرخين الذين عاشوا فى أيام الملك الظاهر : جمال الدين بن واصل المتوفى سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٧ م) مؤلف كتاب "مفرّج الكروب فى أخبار بنى أيوب" وهو مخطوط بدار الكتب الملكية ويعتمد عليه فى دراسة تاريخ الدولة الأيوبية وصدر دولة المماليك بمصر . وقد اعتمدت عليه فى استقصاء تفاصيل حياة بيبرس الأولى وما قام فى وجهه من الصعاب على أثر توليته سلطنة مصر . فهو من هذه الناحية يوضح السبب الذى من أجله غدر بيبرس بالملك المغيث صاحب الكرك الذى خرج عن طاعة بيبرس على أثر توليته سلطنة مصر . ويمدّنا هذا المرجع أيضا بمعلومات لها قيمتها التاريخية فيما يختص بعلاقة بيبرس بجزيرة صقلية . ويؤخذ مما جاء بهذا المرجع بصدد هذه المسألة أن مؤلفه ذهب الى جزيرة صقلية سنة ٦٦١ هـ رسولا من قبل الملك الظاهر يحمل هدية الى ملكها وأنه انقطع عن الكتابة منذ هذه السنة وواصل تلميذه الكاتب كتابته الى سنة ٦٨٠ هـ ملخصا عن كتاب آخر اسمه التاريخ لايعرف اسم مؤلفه .

أما بيبرس الدوادار المتوفى سنة ٧٢٥ هـ صاحب كتاب "زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة" وهو مخطوط بمكتبة الجامعة المصرية فقد تولى بعض المناصب الإدارية فى عهد السلطان قلاوون وابنه الناصر محمد . قلده قلاوون ولاية الكرك ثم عزله

ابنه الأشرف خليل . وعندما تولى السلطان الناصر محمد بن قلاوون سلطنة مصر سنة ٦٩٣ هـ عينه رئيسا لديوان الانشاء ولقب منذ ذلك الوقت بالدوادار[1] وأخذ يترقى فى مناصب الدولة حتى عين نائبا للسلطان سنة ٧١١ هـ . ومن ذلك نرى أن هذا المؤلف كان يكتب عما شاهده فى مصر فى ذلك العصر . فكتابه يعتبر من المراجع الهامة فى دراسة التاريخ السياسى فى عهد الظاهر بيبرس وعهد من خلفه من السلاطين إلى أوائل عهد الناصر محمد بن قلاوون . وقد اعتمدت على هذا المرجع فى دراسة موقف بيبرس إزاء الصليبيين وعلاقته بمغول فارس وكيف استطاع الملك الظاهر أن يقضى على نفوذ المغول ويوقع بهم الهزيمة بعد أن انضم إليهم سلاجقة آسيا الصغرى سنة ٦٧٥ هـ .

يأتى بعد ذلك الشيخ قطب الدين اليونينى المتوفى سنة ٧٢٦ هـ صاحب كتاب "الذيل على مرآة الزمان" وهذا المرجع مخطوط بدار الكتب الملكية وقد ضاع جل نزائه . ولم يبق منه إلا الجزءان الخامس عشر والسابع عشر . وهذا الجزء الأخير هو الذى نمدت عليه فى كتابى . وقد عثر عليه رجال دار الآثار العربية مدفونا بجامع قايتباى ذلك سنة ١٨٨٢ م . وربما كان هذا هو السبب فى ضياع بعض أوراقه وتمزيق البعض الآخر . وعلى الرغم من الصعوبة التى لاقيتها فى قراءة هذا الكتاب فإننى تطلعت أن أستفيد منه بعض الفائدة وخاصة فيما يتعلق بنشأة بيبرس . فقد أمدنا هذا الكتاب برواية فى هذا الصدد أشرت إليها فى كتابى وهى تخالف ما ذكره كل من ابن واصل والمقريزى عن نشأة بيبرس كما أفاض القول فى وفاة بيبرس وأسبابها وما قام به من الأعمال الجليلة التى خلدت ذكره .

ومن المراجع الهامة التى اعتمدت عليها أيضا كتاب "نهاية الأرب فى فنون الأدب" لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى المتوفى سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣٢ م)

(١) الدوادار : هو الكاتب . وهذا اللفظ مأخوذ من الدواة فكأن معناه صاحب الدواة .

فالجزء الثامن والعشرون من هذا المخطوط المحفوظ بدار الكتب الملكية والذى لم يتم طبعه بعد يمدّنا بمعلومات هامة عن سياسة بيبرس الخارجية وخاصة فيما يتعلق بحروبه مع الصليبيين والمغول وموقفه إزاء طائفة الإسماعيلية ببلاد الشام . وقد اعتمدت على هـذا المخطوط فى بحث موضوع إحياء الخلافة العباسـية بمصر وعلاقة بيبرس بالصليبيين والمغول وما أدخله بيبرس من التعديلات على نظام القضاء بمصر .

ومن بين الكتب الخطية التى اعتمدت عليهـا أيضا كتاب "رفع الإصر عن قضاة مصر" لابن حجر العسقلانى المتوفى سـنة ٨٥٣ هـ (١٤٤٩ م) وهو مخطوط بدار الكتب الملكية . وقـد أعاننى على معالجـة أحد مواضيع كتابى وهو نظام القضاء فى عصر بيبرس .

وهناك مرجع آخر اعتمدت عليه فى بحث سياسة بيبرس الخارجية وهو عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان لبدر الدين محمود العينى المتوفى سـنة ٨٥٥ هـ . فالجزء العشرون من هذا المخطوط المحفوظ بدار الكتب الملكية يمدّنا بكثير من المعلومات عن علاقة بيبرس بالصليبيين والمغول وأسباب غزو بيبرس لجزيرة قبرس . ومما هو جدير بالملاحظة أن مؤلف هذا الكتاب كثيرا ما ينقل عن بيبرس الدوادار صاحب كتاب "زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة" .

كذلك اعتمدت على الجزء الثالث من كتاب "النجوم الزاهرة" لأبى المحاسن ابن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ (١٤٥٤ م) وهو مخطوط بدار الكتب الملكية . وقد أخذت دار الكتب فى نشره وانتهت منـه الى أواخر عصر الدولة الأيوبية . وقد أمدنى بكثير من المعلومات عن نشأة بيبرس الأولى والأدوار التى مر بها قبل دخوله فى حوزة الملك الصالح . وهو يروى لنا رواية عن نشأة بيبرس تشبه تمـام الشبه ما ذكره اليونينى عن نشأته . كذلك يمدّنا هـذا الكتاب بمعلومات مستفيضة عن كيفية اعتلاء بيبرس سلطنة مصر ومبايعته للخليفة العباسى ومحاربتـه للصليبيين

والمغول وعن منشئاته وما أدخله بيبرس من التعديل على نظام القضاء المصرى وما الى ذلك مما قام به من الأعمال الداخلية والخارجية . وكثيرا ما ينقل مؤلف هذا الكتاب عبارات برمتها عن كتاب " السلوك لمعرفة دول الملوك " لتقى الدين المقريزى .

وهناك أيضا كتاب آخر له أهمية خاصة فى دراسة الحياة الأدبية فى عصر الظاهر بيبرس وهو كتاب "عيون التواريخ" لابن شاكر الكتبى المتوفى سنة ٧٦٤ هـ (١٣٦٢م) المخطوط بدار الكتب الملكية . فالجزء الحادى والعشرون من هذا المرجع يمدنا بكثير من المعلومات عن هذه الحياة ويذكر لنا كثيرا من الشعراء الذين عاشوا فى ذلك العصر وما قرضوه من الشعر . وعلى الرغم من أن هذا المرجع يحوى الكثير من الأشعار التى نظمت فى عصر بيبرس إلا أنه يصعب على القارئ قراءتها لضياع كثير من كلماتها ، وفضلا عن ذلك فان هذا الكتاب يمدنا بمعلومات وافية عن الحروب التى وقعت بين بيبرس والصليبيين ومغول فارس وعن ازدياد نفوذ بيبرس فى بلاد النوبة .

ومن المصادر التى تناولت الكلام عن صفات بيبرس واصلاحاته وحروبه مع الصليبيين والمغول كتاب "المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية" لمؤلفه شافعى بن على بن عباس . وهو مختصر قصيدة نظمها أبو الفضل عبد الله بن عبدالظاهر فى مدح الظاهر بيبرس . وكان ابن عبد الظاهر قد طلب منه أن يختصرها وينثرها . وفى ذلك يقول ابن عباس[1] "وكان كاتب سره البليغ محيى الدين أبو الفضل عبد الله بن شيخ الاسلام رشيد الدين عبد الظاهر قد افتتح أيامه بنظم سيره رتل منها سور محاسنه صورة صورة وأرّخ وقايعه (كذا فى الأصل) التى هى فى صحايف (كذا فى الأصل) حسناته مسطورة فأطال وأطاب وخطب بأمتع خطاب وأتى على مجموع أيامه يوما يوما ... لكن اقتضى الحال أن يثبت منها الغث والسمين وأن

(١) المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية ورقة ٤ أ .

يكرر مايشافه به سمع سلطانه من اطراء وإن كان فيه صادق لا يمين. وكان رحمه الله قد تحدّث معى فى اختصارها فلم يتفق فى حياته ولم يقع تأدّبا معه فى اثبات لقبه ونفى إثباته . وقد اختصرتها رغبة فى الإيجاز الذى هو عين البلاغة وعذوبة مياه الفصاحة المساغة وذكرت منها الأهم المقدم لتلذ مطالعتها وتروق مراجعتها وبالله التوفيق" .

وهناك مراجع أخرى مطبوعة اعتمدت عليها فى استقصاء سياسة الملك الظاهر الخارجية . ومن أهمها : "كتاب النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد" لمفضل ابن أبى الفضائل الذى لا تعرف سنة وفاته وكل ما نعرفه عنه أنه انتهى من كتابه سنة ٧٣٥ هـ . وتنحصر أهمية هذا الكتاب فى أن مؤلفه عاش فى مصر فى عصر الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣ — ٧٤١ هـ) واعتمد على كثير من المراجع الهامة المعاصرة التى لاتزال مخطوطة الى الآن . نخص بالذكر منها كتاب "السيرة الظاهرية" لمحيي الدين بن عبد الظاهر و "زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة" لبيبرس الدوادار و "نهاية الأرب فى فنون الأدب" للنويرى . وعلى الرغم من أن مفضل بن أبى الفضائل كان مسيحى المذهب فانه اتبع فى تأليفه الخطة التى سار عليها المؤرّخون من المسلمين فبدأ كتابه بالبسملة وأرّخ الحوادث بالسنين الهجرية . وقد أمدنى هذا الكتاب بحقائق تاريخية عن اتساع نفوذ بيبرس ببلاد النوبة وعن المراسلات التى تبودلت بينه وبين نجاشى الحبشة وبه فوق ذلك كثير من المعلومات الهامة عن سياسة بيبرس إزاء الصليبيين والمغول .

كذلك اعتمدت على كتاب "السلوك لمعرفة دول الملوك" لتقى الدين المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) عند بحث حالة مصر قبيل اعتلاء بيبرس عرش السلطنة بها، وسياسته الخارجية مع الصليبيين والمغول، وعلاقته بالملوك الشرقيين والغربيين المعاصرين له ، وما قام به من الاصلاحات . والمقريزى فى كل هذه الموضوعات يمدّنا بكثير من المعلومات القيمة . ومما يلاحظ عليه أنه ينقل كثيرا عن النويرى فيما يتعلق بكلامه عن الأيوبيين والمماليك .

وهناك كتاب آخر اعتمدت عليه وهو كتاب " المختصر فى أخبار البشر " لأبى الفدا المتوفى سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣١ م) . وقد أمدنى بمعلومات هامة عن الأمراء الذين خرجوا عن طاعة بيبرس على أثر اعتلائه عرش مصر ، كما أعانى على بحث مسألة إحياء الخلافة العباسية بمصر . هذا وغير خاف ما لغير ما ذكرنا من الكتب من جليل الفائدة لهذا البحث مثل كتاب " العبر وديوان المبتدا والخبر " لابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) . وتاريخ الخلفاء للسيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) . و " بدائع الزهور فى وقائع الدهور " لابن إياس المتوفى سنة ٩٣٠ هـ (١٥٢٣ م) .

ومن أهم المصادر وأمتعها فى بحث النظم الادارية والمالية فى عصر بيبرس كتاب "صبح الأعشى فى صناعة الانشا " لأبى العباس أحمد القلقشندى ، وكذلك كتاب " المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار " للمقريزى ، و "حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة " للسيوطى . فيمدنا السفر الأول بكثير من المعلومات عن ديوان الانشاء . وقد أفرد القلقشندى الجزءين الأول والثانى من كتابه فى التعريف بهذا الديوان وفى بحث نشأته فى الإسلام إلى زمنه ، كما يمدنا بمعلومات هامة عن الوظائف والموظفين فى ذلك العصر وعن الطبقات التى كان يتكون منها الجيش وعن نظام البريد والقضاء وما أحاط سلاطين المماليك من أبهة وجلال . أما كتاب الخطط للمقريزى فقد اعتمدت عليه فى وصف منشئات بيبرس والأسواق التجارية التى أنشأها فى عصره كما ساعدنى على بحث النظام الإدارى فى عصره والوظائف الهامة . كذلك يمدنا السيوطى ببعض المعلومات عن الموظفين فى ذلك العصر ومهمة كل منهم وعن القضاة الذين تولوا قضاء مصر فى عصر بيبرس ومن خلفه من سلاطين المماليك .

وهناك كتاب تتهافت على قراءته العامة وبعض الخاصة ويعرف بالسيرة الظاهرية ويقع فى ثلاثين جزءا . وكنت أظن أنه يحوى شيئا ذا غناء فى سيرة هذا

البطل العظيم ولكنى تصفحته فاذا هو يحوى طائفة من الخرافات والأخبار المشوهة التى لا يصح أن يعتمد عليها الباحث الحديث، لذلك أهملتها واكتفيت بالمراجع الموثوق بها .

ومن المصادر الافرنجية التى اعتمدت عليها كتاب :

Sir William Muir, "The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt" وقد أمدّنى بعض المعلومات عن سياسة بيبرس إزاء الصليبيين والمغول، وعن رغبة بيبرس فى حصر وراثة العرش فى أسرته وما ترتب على ذلك من الحوادث .

وهناك كتب أخرى اعتمدت عليها فى بحث موقف بيبرس إزاء الصليبيين وهى : كتاب Stevenson, "The crusaders in the East" وكتاب : Barker, "The crusades" وكتاب : King, "The Knights Hospitallers in the Holy Land" . وهذه الكتب لم تفصّل القول فيما قام به بيبرس من الأعمال الجليلة ببلاد الشام للقضاء على نفوذ الصليبيين .

كذلك اعتمدت على الترجمة الانجليزية لمذكرات جوانفيل عن حملة لويس التاسع على مصر : "Memoirs of the crusades" by Villehardouin & Joinville, translated by Sir Frank Marzials. وعما كتبه Davies فى كتابه : "Invasion of Egypt in A.D. 1249 by Louis IX of France" و Stanley Lane-Poole فى كتابه : "A History of Egypt in the Middle Ages". عن هذه الحملة أيضا . وعلى الرغم من أن جوانفيل قدم الى مصر مع لويس التاسع وشاهد المعارك التى وقعت بين المصريين والصليبيين فإنه لم يمدّنا بمعلومات ذات غناء عن نصيب بيبرس فى صدّ هذه الحملة وكذلك ديفز (Davies) الذى اعتمد على ما كتبه جوانفيل فى مذكراته لا يمدّنا بمعلومات هامة فى هذا الموضوع . أما (Stanley Lane-Poole) فقد وضح لنا فضل بيبرس وفرقة المماليك

فى صدّ حملة لويس التاسع عن مصر ، كما تكلم عن علاقة بيبرس بملوك أوربا وما عقده معهم من المحالفات والمعاهدات التجارية .

ومن الكتب التى اعتمدت عليها فى دراسة علاقة بيبرس بالمغول كتاب Browne, "Literary History of Persia" ، فهذا المرجع يمدّنا بكثير من المعلومات عن سقوط بغداد على يد هولاكو وما ترتب على ذلك من القضاء على الخلافة العباسية ، وعن الدور الذى قام به بيبرس فى صدّ جند هولاكو المغولية فى موقعة عين جالوت (٦٥٨ هـ = ١٢٦٠ م) قبل اعتلائه سلطنة مصر ، كما يوضح لنا أيضا ما كان بين بيبرس ومغول فارس من العداء وما كان من تغلبه عليهم فى موقعة قيسارية سنة ١٢٧٧ م .

وهناك كتاب آخر اعتمدت عليه فى بحث علاقة بيبرس بالمغول الذين يقطنون ببلاد القفجاق وهو كتاب : Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam وقد أمدّنا هذا الكتاب بمعلومات هامة عن كيفية انتشار الاسلام بين أهالى القبيلة الذهبية ببلاد القفجاق وما ترتب على ذلك من قدوم كثير من المغول الى مصر واعتناقهم الاسلام بها .

ومن الكتب الممتعة التى اعتمدت عليها فى بحث حضارة مصر فى عصر الظاهر بيبرس كتاب : Heyd, Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age وقد أعاننى هذا الكتاب على بحث تجارة مصر الخارجية فى عصر الظاهر بيبرس والمعاهدات التجارية التى عقدها الملك الظاهر مع ملوك أوربا وبعض الأمراء الشرقيين .